

الإنسان ، هذا المجهول ..

الدوافع البيولوجية وأثرها^(٥)

للأستاذ فؤاد عوض واصف

—>>><<<—

كانت ظاهرة التقليد التي قال بها العلامة تارد في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، هي التفسير الوحيد عند علماء الاجتماع للحياة الاجتماعية ؛ فظهور فرد قوي أو قائد شجاع أو مشرع كبير في مجتمع ما يمكن من خلق عرف جديد ينتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم . ذلك لأن الناس على دين ملوكهم وحكامهم وقادتهم ، يقلدون تقليداً أعشى كل ما يبتدعه رعاتهم^(١) ، ولقد ملك تارد بتفسيره هذا عقول العلماء ردحاً كبيراً من الزمن إلى أن ظهر العلامة الأسترىكي الأشهر ماكدوجل ، فطلع علينا بتفسير جديد هو على خلاف فيه مع نظرية تارد ؛ وقد عرفت نظرية تارد بنظرية الدوافع . ولئن كانت معرفتنا بالدوافع

(٥) شرح نظرية التقليد في بحثنا في الرسالة عدد ٦٢٢

قال : هيهات ! إنه تكلم بكلام علوي ، كنا نحسّ به ينصب في القلوب انصباباً فتستشرفه وتتساقى إليه ، وما زال يقول وهي ترتفع حتى خلصت من هذه الجمأة الدنسة التي كانت غارقة فيها ، إلى الفضاء الأرحب وإلى الجوّ الطهور . إنه لم يتكلم كما أتكلّم أنا وأنت ، ولا كما كان (هو) يتكلم ، فقد سمعته قبل ذلك اليوم ، فما سمعت منه مثل هذا ، وإني لأظنّ أن ملكاً نطق بلسانه فن هنالك خرج الكلام نورانياً سماوياً .

قلت : مثل ماذا ؟

قال : أنا رجل عاى ، فاذا أعدته عليك لم آت به من ذهني الكليل إلا أرضياً منطقتاً ، كالشهاب المنير إذا روتته الأرض لم يكن على لسانها إلا صخرة باردة جامدة ... أفتحب أن أردّ عليك ما حفظت منه من ذهني أنا لا من ذهنه ، ولساني لا بلسانه ؟

قلت : نعم .

قال : إن مما حفظت منه قوله ...

على الخطاوى

(البقية تأتي)

قديمة قدم أرسطو ، فإن الاهتمام بها لم يبلغ الحد العظيم الذي بلغت به أبحاث ماكدوجل . لقد كشف لنا ماكدوجل في أبحاثه عن أثر الدوافع البيولوجية في الإنسان وأسرارها العظيمة ونتائجها العديدة ، حتى لقد رد الحياة الاجتماعية كلها إلى هذه الدوافع البيولوجية الكامنة في الإنسان ، ومن هنا كان أن عرف بأبي علم النفس الاجتماعي .

وقد كان من أثر أبحاث ماكدوجل في الدوافع أن ظهرت في معامل علم النفس مقاييس لقياس الحوافز والدوافع بطريقة دقيقة كل الدقة حتى لقد مكنتنا من معرفة درجات القوة والضعف في الدوافع المضوية الداخلية معرفة بسرت لنا تفسير أنواع الانحرافات النفسية والجنسية والاجتماعية أيضاً ؛ فالسلوك الإنساني يرد في النهاية إلى الدوافع الداخلية ، كما هو الحال مثلاً في سن البلوغ ، إذ يشاهد أن تولد الميل الجنسي نأجج عن دافع عضوي ، وهذا الميل الجنسي يقترن بتغيرات في الهيئة والسلوك ، فيميل البالغ إلى الحياة الخيالية كما هو معروف في الحب الصياني .

ويمكن تعريف الدافع المضوي بقولنا « هو كل حافظ يندفع إلى فعل يتحول بالتحليل إلى حالة تنبيه ، تثير الفرد وتدفعه إلى سلوك ما عن طريق مجموعات خاصة من المقد المصيبة !!

ومن أهم الدوافع الداخلية ، إفرازات الغدد الصماء التي تثير النزعات والميول والرغبات ، وتحمل الشخص أن يقوم بحركة وأن يسي نحو تحقيق الميل وإشباعه بطريقة أشبه بأن تكون آلية جبرية .

ولكل دافع من الدوافع المضوية الداخلية استجابات خاصة به تختلف من دافع إلى آخر ، فلدافع الجوع والمطش استجابات تختلف عن استجابات الدافع الجنسي مثلاً .

والدافع الجنسي من أمثلة الدوافع الكيميائية التي تتمثل في إفرازات غدد خاصة موجودة في الإنسان . وكل أنواع الاستجابات والسلوك الجنسي هو نتيجة ترد في النهاية لإفراز التدد التناسلية . وقد أثبتت التجارب العديدة أن عملية استئصال الأفرز الجنسي من الخصيتين Testes أو المبيض Ovaries يقضى على الميل الجنسي ، في حين أن تجديد هذا الإفراز يعيد الميل الجنسي إلى حالته الطبيعية ؛ فكان أن اختلف بين الذكر والأنثى في

تتضمن غير الماء ، درجة خاصة من الحرارة وغيرها . ومن هذا يبدو أن دافعا واحدا كدافع الجوع أو العطش يتضمن في ذاته عدة دوافع . من أجل ذلك فإن إحصاء عاما للدوافع كما أراده ديكرت وهو يزعم ضربا من الاستحليل ، إذ أن الحاجات تتعدد ، وبالتالي تتمدد الدوافع المولدة لهذه الحاجات . وعمل الدوافع في الإنسان يقترن بتغيرات كيميائية وعضوية في جميع أنحاء الجسم حتى في البشرة . ويظهر ذلك بوضوح في حالة الحب مثلا الذي هو إرضاء للدافع الجنسي . وتعمل الدوافع على أن تلائم بين الإنسان والطبيعة ، فقد يبدو أن لون البشرة السوداء عند زواج المناطق الاستوائية نابع في الأصل عن تأثير حرارة الشمس المحرقة ، مع أنها نتيجة لأفعال منمكسة قامت بها خلايا البشرة لإرضاء دافع الحاجة إلى درجة حرارة مناسبة للجسم ؛ فليست الحرارة هي التي تحرق البشرة ، لكونها حرارة ، بل هي تقوم فقط مقام الباعث لاستجابات ناتجة عن دوافع وحاجات ، أعنى في هذه الحالة أن هنالك دافعا في الإنسان قد اقتضى تغيرات فسيولوجية حتى يتم التوافق بين الإنسان في تزوجه إلى الحياة وبين الطبيعة الخارجية عنه .

ونريد هنا أن نلفت النظر إلى أنه في كثير من الأحوال يكون المنبه الخارجي هو المحرك للدافع إذا كان في حالة كون . فإذا كنت في وقت ما جائعا وكان دافع الجوع في كونه لانشغالي بأفكار وخواطر ، فإن الساعات تمر بدون أن يتعدى الدافع العضوي حدود الشعور ؛ فإذا فرضت أن رائحة شهية لطعام قد وصلتني وشفلت شموري برهة من الزمن ، كان هذا المنبه كافيا لتحويل الحاجة إلى الطعام من حالة الكون إلى حالة النشاط أي إلى رغبة ، وكذلك الحال فيما يختص بالدوافع الأخرى . وقد سبق أن ذكرنا أن إحصاء عاما للدوافع ضرب من

المستحيل ولكن يمكن أن تقسم الدوافع إلى أنواع أربعة :

- ١ - دوافع عضوية : كدافع الجوع والعطش الخ ...
- ٢ - دوافع كيميائية : كالدافع الجنسي ودافع التعب . هو عبارة عن بعض السموم تكونت في دم الإنسان فأوجدت فيه حالة التعب . والذي يثبت لنا أن التعب ومظاهره ليس نتيجة مباشرة لمجهودات عضلية التجربة التي قام بها عالم نفساني كبير . وتتلخص في أنه حقن كلبا لم يقم بأية عملية إجهادية بدم كلب

السلوك الجنسي يرد إلى اختلاف الغدد فحسب ؛ والرجل والمرأة لا يختلفان في تكوينهما ، وما السمات المميزة لكل منهما إلا أثر بل استجابة لإفراز معين تفرزه غدة تناسلية تختلف في الذكر عنها في الأنثى . وأنه لمن السهل علينا الآن أن نجعل من الدجاجة ديكاً ، ومن الديك دجاجة تقريبا ، وذلك بعملية استئصال غددي فتتحول الدجاجة إلى ديك وتفقد كل سماتها الأولى وتصبح ذات عرف يأخذ في النمو ، وينقلب سلوكها ولا يمكن تمييزها في النهاية من ديك آخر . وكذلك الحال إذا أردنا أن نجعل من الديك دجاجة فاعلينا إلا استئصال الخصيتين فيفقد الديك عرفة ويتم بكل سمات الدجاجة وسلوكها .

ولا يقتصر تأثير الدافع العضوي على الهيئته والتكوين الفسيولوجي فقط ، بل أيضا في اتجاه السلوك والأخلاق ؛ ويمكن أن نوضح هذا جيدا بحالة بعض الأفراد الذين يتأخرون في بلوغهم Prematureg ، نجد الواحد منهم في سن العشرين مثلا وكل مظاهر الرجولة معدومة فيه لا في الظاهر الفسيولوجية فحسب ، بل أيضا في السمات الخلقية ، ففيه نجد حياء الأنثى وخوفها ومرورتها وما إلى ذلك . فإذا عولج هذا الشخص المتأخر في بلوغه بواسطة خلاصة الخصيتين Drcbic substances لا يلبث بعمدة يطول زمنها أو يقصر ، حسب حدة الحالة ، أو يصبح وقد ظهرت عليه سمات مختلفة عن ذي قبل ، فيرتفع صوته ويتضاعف نشاطه وزول الخجل منه والحرف وما إلى ذلك من مظاهر الأنوثة الأخلاقية ، ويتولد فيه الميل الجنسي . ومن هنا يظهر لنا ، أن سمات الرجولة والأنوثة سواء كان ذلك من الناحية الفسيولوجية أو الخلقية إنما يرد في النهاية إلى الدافع الكيميائي وهو إفراز الغدد التناسلية .

. والآن إذا أردنا أن نحصى الدوافع في الإنسان بسائر أنواعها فإننا سنجد لها من الكثرة بحيث يصعب معها المد والحد ؛ فإن دافعا كدافع الجوع العضوي قد يبدو بسيطا مع أنه مركب من عدة دوافع : فالحاجة إلى الأكل ، تتضمن الحاجة إلى موالح ووشويات ودهنيات الخ ، ودافع العطش ليس هو الحاجة إلى الماء فحسب ؛ لأننا إذا أعطينا حاملا مجهدا في يوم قانظ ماء ساخنا ليرتوي ، فإنه بذلك لن يرضى دافع العطش ، لأن الحاجة هنا

وهناك ثلاثة أنواع من الانفعالات الأولية في الإنسان وهي الخوف والغضب والحب . والظواهر المختلفة التي تبدو على الإنسان نتيجة لهذه الانفعالات نتيجة لإفرازات معينة في الغدد العباء بتأثير الجهاز العصبي .

أما انفعال الخوف فينتج شعوراً زديناً ؛ فبالإضافة إلى ما يثيره من الاضطراب في بعض أجهزة الجسم كما يكون الحال في سرعة دقات القلب والتنفس السريع ، بالإضافة إلى ذلك يكون للخوف طابع خاص يظهر في امتناع الوجه واضطراب المفاصل والأطراف وقفوف شعر الرأس ... الخ ... وللغضب مظاهره الخاصة كذلك وهي في جلتها أقل عنفاً من مظاهر الخوف ، وفي حين تكون نتيجة الخوف تقيها تقيها تكون نتيجة الغضب تقديماً واندفاعاً . أما الحب فهو أحد الانفعالات الأولية التي تحدث شعوراً طيباً محبياً . والذين جعلوا للحب مركزاً خاصاً في القلب لم يبتعدوا كثيراً عن الحقيقة . فانفعال الحب في الواقع يتركز أثره في جهة ما فوق القلب نتيجة لتأثر الدورة الدموية بباغ الحب وما يثيره في الدورة من نشاط . وللحب طابعه الخاص ، يظهر في ابتسامه القم وإشراق الوجه ، ولعل أروع صورة ساذجة لطابع الحب الجميل ، تظهر في محيا الطفل الصغير وهو يرنو إلى أمه .

هذه المعرفة الخاصة بالدوافع ، قادتنا إليها دراستنا للحيوانات العليا وللطفل وللإنسان البدائي .

وإن دراستنا للإنسان البدائي الساذج ، تجملتنا نغف أملم صورة كأن يعضى أغلب وقته في الأكل والشرب مبتعداً عن الأصوات المزججة والحرارة اللائحة ، يجرى ويقفز ، يصيح وينصت ويتأمل ويشاهد أنه مدفوع إلى النشاط بما يبعثه الكون المحيط به ؛ قد يجد لذة في أن يداعب كلبه أوقى أن يقفز على شجرة ، كل هذه الاستجابات تتولد من الكون النسيح وما يبعثه من مؤثرات ومنهات . وإنه لمن الانصاف أن نقرر ما ذكره نورديك من أن قائمة الدوافع التي قال بها ديكاوت وهورز لا تصور الحقيقة ، فإن الدوافع في الإنسان والحيوان من الكثرة بحيث يختلط بعضها ببعض ، وإن حيل الحيوان وحتى

ظل طوال اليوم يرافق سيده في الصيد ، فكانت النتيجة أن ظهرت في الكلب السليم كل مظاهر التنب والإبهاك الموجودة في الكلب التنب . فكان التنب ومظاهره نتيجة لسامل كيميائي موجود في الدم وهو سموم أشبه ما تكون بالسموم المعروفة ، ومن هذا يبدو أن التنب ومظاهره استجابة لدافع كيميائي موجود في الدم .

٣ - دوافع نشاط « Activity Drives » وتكون ذات استجابات مناسبة لتلام مع ما يحيط بالإنسان من ظروف .

٤ - دوافع الجمال : مثل أن تظهر في استجابة الطفل الصغير لما يحيطه من ألوان وموسيقى ذات مقاطع ، تجذبه إلى أن يسلك سلوكاً معيناً ، هو استجابة ساذجة لما يحيط به من جمال . كذلك الحال في البالغين . لقد ركب فينا دافع للجمال ، أمه الروح تترع إلى الجمال وتستجيب له كما يترع الأليف إلى أليفه ويستجيب له . وفي السجن الحديثة يبالغ المجرم بسماع الموسيقى وإحاطته بألوان من الجمال تستجيب لها نفسه فيبعث بمثا ويمود إنسانا .

لقد ذكرنا من الدوافع ما هو عضوي وكيميائي ونشاطي وجمالي ؛ بق نوع خامس من الدوافع يستجيب للمؤثرات الفجائية العنيفة كالخوف والغضب والبغض والمار . وتسمى هذه المجموعة من الدوافع بالإنفعال Motion .

والدراسات العلمية الكثيرة في مجال علم النفس المقارن ، حققت لنا وجود ظاهرة الإنفعال عند الكثير من الحيوانات ، مع ملاحظة خاصة ، وهي أن الإنسان كثيراً ما يخضع لافعالته ويوجهها توجيهاً خاصاً ، في حين أن الحيوان ينفعل فلا يكاد يملك أسباب التوجيه أو إخفاء انفعالاته .

وقد قامت مشكلة كبيرة في علم النفس خاصة بالإنفعال وتتلخص في هذا السؤال : هل انفعال أولاً ثم اضطرب أم اضطرب أولاً ثم انفعال ؟ والرأي الصحيح عند وليم جيمس هو أن الإنسان يضطرب أولاً ثم ينفعل ، أعنى أن الإنفعال في ذاته هو نتيجة لاضطرابات عضوية وكيميائية في جسم الإنسان . ففي حالة الخوف مثلاً ، تحدث في داخل الجسم افرازات عضوية معينة ، تكون نتيجة ظهور سمات الخوف على الإنسان . وبكلمة مختصرة ، الإنفعال في أساسه فسيولوجي قبل أن يكون نفسانياً .

القضاء والقدر لا دخل لحرية الإنسان فيه؛ فالجرم يولد مجرماً بالطبيعة *Criminel par nature* وإنه لمن التسف أن يماقب المجرم عن شيء لا يملك فيه اختياراً أو مشيئة. وليس في الإمكان إصلاح مجرم ولد هكذا ولا تجدى فيه التربية أو التوجيه الحسن. وقد خصص لبروزو لشرح نظريته كتابين شهيرين هما: كتاب الرجل المجرم *L'homme criminel*، والمرأة المجرمة *La femme criminel*، فالاص عند لبروزو ذو تكوين خاص في هيئته وكذلك سائر المجرمين، وما الجريمة إلا استجابة لتكوينهم العضوي الناقص الذي جاءهم عن طريق الوراثة. وكثير من اتجاهات علم النفس الجنائي إلى يومنا هذا تستلهم موضوعاتها من بحوث لبروزو.

ولكن البحوث التي قام بها علماء الأحياء منذ ربع قرن في موضوع الوراثة وكذلك علماء السلوك الإنساني، وخاصة في دراساتهم لأنواع الشذوذ والانحرافات، أدت إلى الإقلال من حتمية الوراثة، وأثبتت مرونة الإنسان وقابليته للتشكل والإصلاح، فسلوك الإنسان قابل للتغير والتحسن، ويتوقف نجاح التربية إلى حد كبير على إحكام طرقها وإتقان أساليبها.

ليس الإنسان إذن أسير وراثته أو تكوين عضوي خاص كما كان شائعاً من قبل، بل إنه يملك إلى حد كبير أسباب التغير والإصلاح. لا يوجد هناك ما يسمى طبيعة مجرمة في النفس الإنسانية؛ بل على العكس من ذلك، إن طبيعة النفس الإنسانية كما يقول كانت خير وكل الخير، وإنما هنالك نفوس مريضة تدافع عن توازنها الاجتماعي، فتضل في المترك عن الطريق السوي. إن للدوافع في الإنسان كما سبق وذكرنا شأناً كبيراً، ولكنها في الإنسان غيرها في الحيوان. لا، بل إن الحيوان نفسه قابل للترويض وللانحلال، فكم يكون الحال في الإنسان وفيه من نور الله قيس! أوليس فيما وصل إليه علم التربية والنفس أكبر الدليل على مرونة الإنسان وعلى كونه يختلف اختلافاً بيناً عن سائر الكائنات بما وهبه الله من عقل يفكر ويتذكر؟ إذا فللدوافع في الإنسان شأن كبير ولكنه أقل من أن يجعل الإنسان مسيراً لا مخيراً.

فؤاد هوصمه واصف

لسانيه في العلوم الفلسفية

أبسطها في السمي لزرقة، نجملنا نقرر بأن احصاء عاماً للدوافع ضرب من المستحيل.

هذه هي الدوافع، وهذا موضوعها. والإنسان في سعيه إلى رزقه وفي سعيه إلى الحياة، إنما يستجيب إلى الدوافع التي ركبت فيه تركيباً. ولو شئنا التطرف لقلنا مع ميرفي *Murphy* ونيوكب *Neucomb*، إن الإنسان ليس شيئاً آخر غير الدوافع التي ركبت فيه وجاءته عن طريق الوراثة، ومن هنا يكون الإنسان في هيئته وجنسه وسلوكه الأخلاقي، مدفوعاً بدوافع داخلية لا قبل له بردها. فالحب تبعاً لهذا ليس إلا استجابة لإفراز الغدد الصماء، والأجرام في بعض الأفراد ليس إلا استجابة طبيعية لتكوين المجرم الجنائي الذي أتاه عن طريق الوراثة. إن الدوافع الداخلية في الإنسان هي التفسير الوحيد لحياته الجسمية والأخلاقية. ومن هنا لا يكون الإنسان مخيراً بل مسيراً ولا يكون للتربية مجال كبير أو صغير في توجيهه وتهذيبه.

وهكذا يذهب ميرفي ونيوكب ومعهما جمهرة من العلماء، ويقولون بنوع من القدرية *Fatalism* في تقرير الكائن الحي، إن كان سيولد إنساناً أم فأراً أم عصفوراً، إن كان سيولد بمنقار أو بشفتين، بأربع أرجل أم برجلين. فاختلاف الكائنات الحية عندهم نتيجة لاختلاف الدوافع التي وهبت للكائن الحي قضاء وقدرًا. وكذلك الحال عندهم في اختلاف الأفراد بعضهم عن بعض، فليس هذا إلا نتيجة لاختلاف الدوافع فحسب. ولئن زعم الناس بمرونة الإنسان وقبوله للتشكل والإصلاح، فليظنوا إلى هذا الاختلاف البين بين الأفراد بعضهم وبعض في نموذج كل مجتمع. أجل إن هذا الاختلاف لثير، ومجموعة من الكلاب الصئيرة يمكن أن ترمز إليه كما ترمز إليه مجموعة من الأطفال في معهد خاص.

ليست هنالك إذن مرونة في الإنسان أو قابلية للتشكل في نظر تلك الفئة من العلماء، فالإنسان يستجيب للمؤثرات المحيطة به كما يستجيب لها الحيوان.

وكذلك يذهب أيضاً العلامة لبروزو *Lombroso* أستاذ القانون الجنائي في جامعة روما؛ فهو يرى أن الجريمة فرع من